التواضع

تأليف

د / على راشد

رسوم

ماهر عبد القادر

التجهيزات الفنية

شركة لمحة آرت

جميع الحقوق محفوظة

برقم إيداع: 2010/20637

المجد للنشر والتوزيع: 0106372799

اِجْتَمَعَ الْأُسْتَاذُ مَعَ تِلْمِيذِهِ وَتِلْمِيذَتِهِ. قَالَتِ التِّلْمِيذَةُ: أُسْتَاذَنَا الْجَلِيلَ، زَارَتْنَا فِي الْمَدْرَسَةِ الْيَوْمَ شَخْصِيَّةٌ كَبِيرَةٌ وَمُهِمَّةٌ فِي وَزَارَةِ التَّرْبِيَةِ وَالتَّعْلِيمِ، وَقَدْ كُنَّا نَرْهَبُ مُقَابَلَتَهُ أَوِ التَّحَدُّثَ مَعَهُ لِمَرْكَزِهِ الرَّفِيعِ، وَلَكِنَّنَا وَجَدْنَاهُ فِي غَايَةِ الْبَسَاطَةِ فِي حَدِيثِهِ، وَفِي مُعَامَلَاتِهِ سَوَاءً مَعَ إِدَارَةِ الْمَدْرَسَةِ، أَوْ مَعَ الْمُعَلِّمَاتِ، أَوْ مَعَ التِّلْمِيذَاتِ، وَانْفَتَحَتْ قُلُوبُنَا جَمِيعًا لَهُ، وَسَعِدْنَا كَثِيرًا بِلِقَائِهِ.

قَالَ الْأُسْتَاذُ مُبْتَسِمًا: هَذَا هُوَ التَّوَاضُعُ يَا بُنَيَّتِي.

تَسَاءَلَ التِّلْمِيذُ: وَمَا مَعْنَى التَّوَاضُعِ يَا أُسْتَاذَنَا الْجَلِيلَ؟

أَجَابَ الْأُسْتَاذُ: التَّوَاضُعُ يَا بُنَيَّ قِيمَةٌ دِينِيَّةٌ عَالِيَةٌ، وَهُوَ يَعْنِي عَدَمَ التَّعَالِي وَالتَّكَبُّرِ عَلَى النَّاسِ، فَالْمُسْلِمُ الْحَقُّ يَحْتَرِمُ كُلَّ النَّاسِ مَهْمَا كَانُوا أَقْوِيَاءَ أَوْ ضُعَفَاءَ، أَوْ كَانُوا أَعْلَى مَنْزِلَةً، أَوْ أَقَلَّ مَنْزِلَةً، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (سورة القصص، آية ٨٣)

وَلَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ مُحَمَّدٌ ﷺ أَشَدَّ النَّاسِ تَوَاضُعًا. فَإِذَا سَلَّمَ عَلَيْهِ أَحَدُ الصَّحَابَةِ ظَلَّتْ يَدُهُ الشَّرِيفَةُ فِي يَدِ الصَّحَابِيِّ لَا يَنْزِعُهَا. وَيُولِيهِ كُلَّ اهْتِمَامِهِ فِي أَثْنَاءِ حَدِيثِهِمَا. وَيَتَبَسَّطُ مَعَ الْجَمِيعِ. فَعَلَيْكُمَا بِالتَّوَاضُعِ يَا أَبْنَائِي لِكَيْ تَفُوزُوا كَمَا فَازَ الثَّرِيُّ (سَلَامَةُ).

قَالَتِ التِّلْمِيذَةُ فِي تَشَوُّقٍ: وَمَنْ هَذَا الثَّرِيُّ (سَلَامَةُ)؟ وَمَاذَا فَعَلَ لِكَيْ يَفُوزَ؟

رَدَّ الْأُسْتَاذُ قَائِلاً : الثَّرِيُّ (سَلَامَةُ) هَذَا يَا بُنَيَّتِي كَانَ يَمْتَلِكُ أَمْوَالاً طَائِلَةً لَا تُعَدُّ وَلَا تُحْصَى، كَمَا كَانَتْ لَدَيْهِ الْعَدِيدُ مِنَ الْقُصُورِ الْفَارِهَةِ، وَيَمْتَلِكُ كَذَلِكَ الْعَدِيدَ مِنَ الْحَدَائِقِ الزِّرَاعِيَّةِ الْمُثْمِرَةِ، وَمِئَاتِ الْأَفْدِنَةِ مِنَ الْأَرَاضِي الزِّرَاعِيَّةِ عَالِيَةِ الْخُصُوبَةِ، وَرَغْمَ كُلِّ ذَلِكَ فَإِنَّ الثَّرِيَّ (سَلَامَةَ) لَا يَحْلُو لَهُ تَنَاوُلُ الطَّعَامِ إِلَّا مَعَ خَدَمِهِ وَعُمَّالِهِ.

وَكَانَ يَجْلِسُ مَعَهُمْ عَلَى حَصِيرِ الْأَرْضِ وَيُحَدِّثُهُمْ فِي بَسَاطَةٍ . وَكَانَ يَمْزُجُ حَدِيثَهُ بِالطَّرَائِفِ وَالنَّوَادِرِ لِيُدْخِلَ السُّرُورَ عَلَى الْجَمِيعِ. وَأَمَّا عَنْ مَلَابِسِهِ فَقَدْ كَانَتْ بَسِيطَةً لَا يُغَالِي فِي مَظْهَرِهَا. فَإِذَا سَأَلَهُ أَحَدٌ مَسْأَلَةً، أَوْ طَلَبَ مِنْهُ حَاجَةً مَا، أَعْطَاهُ إِيَّاهَا فَوْرًا. وَيَزِيدُ عَلَيْهَا كَذَلِكَ. فَفَازَ (سَلَامَةُ) بِحُبِّ كُلِّ النَّاسِ. وَفَازَ قَبْلَ ذَلِكَ بِحُبِّ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. وَهَذَا هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ.

ابْتَسَمَ التِّلْمِيذُ وَقَالَ: اللهِ.. اللهِ.. مَا أَرْوَعَ هَذَا التَّوَاضُعَ، وَلَكِنَّ مَا عَكْسُ التَّوَاضُعِ يَا أُسْتَاذِي؟

أَجَابَ الأُسْتَاذُ: عَكْسُ التَّوَاضُعِ يَا بُنَيَّ رَذِيلَةُ الْكِبْرِ، وَمَنْ يُصَبْ بِهَذِهِ الرَّذِيلَةِ يَمْشِ بَيْنَ النَّاسِ مُتَبَخْتِرًا، مُتَعَالِيًا، يَتَحَدَّثُ إِلَى النَّاسِ وَكَأَنَّهُمْ عَبِيدٌ لَهُ، وَكُلُّ كَلَامِهِ لَهُمْ أَوَامِرُ وَغَطْرَسَةٌ، لَا يَعْرِفُ الْعَفْوَ، وَلَا يَعْرِفُ التَّسَامُحَ، يَكْرَهُهُ النَّاسُ، وَيَكْرَهُهُ رَبُّ النَّاسِ يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ (سورة لقمان، آية ١٨). فَابْتَعِدُوا يَا أَبْنَائِي عَنْ هَذِهِ الرَّذِيلَةِ حَتَّى لَا يُصِيبَكُمْ مَا أُصِيبَ بِهِ الْمَدْعُو (فَوَّازٌ).

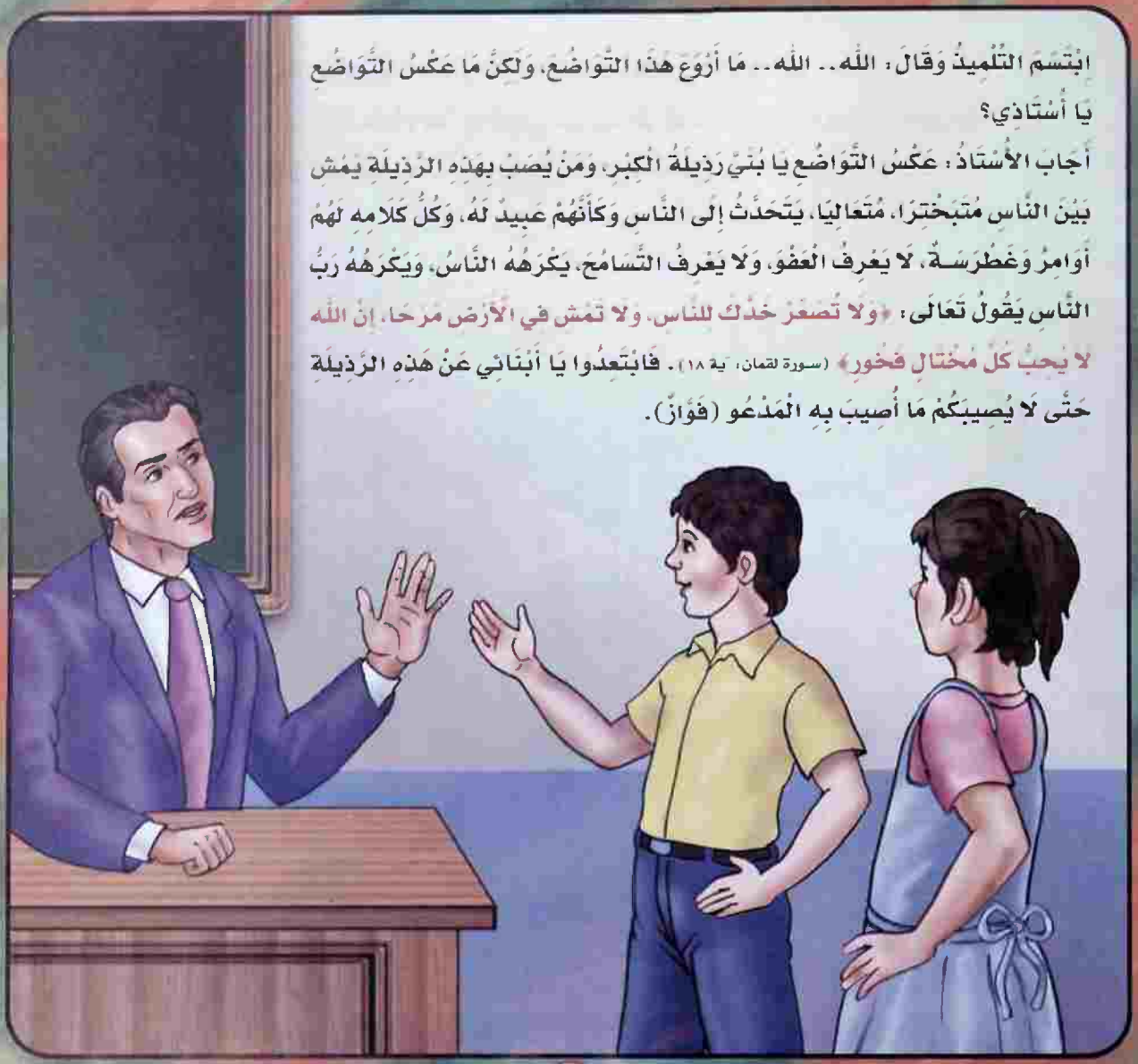

قَالَت التِّلْمِيذَةُ: وَمَنْ هُوَ الْمَدْعُو (فَوَّازٌ) هَذَا يَا أُسْتَاذِي؟ وَمَاذَا أَصَابَهُ؟

رَدَّ الْأُسْتَاذُ قَائِلاً: (فَوَّازٌ) هَذَا يَا بُنَيَّتِي كَانَ يَمْتَلِكُ مَصْنَعًا كَبِيرًا يَعْمَلُ فِيهِ كَثِيرٌ مِنَ الْعَامِلِينَ، وَكَانَ يُعَامِلُهُمْ مُعَامَلَةً فِي غَايَةِ التَّعَالِي وَالْغَطْرَسَةِ وَالْكِبْرِ.

فَمَنْ يُخْطِئُ خَطأً بَسِيطًا يُعَاقِبْهُ بِخَصْمٍ كَبِيرٍ فِى أَجْرِهِ، أَوْ يَطْرُدْهُ مِنَ الْعَمَلِ نِهَائِيًا، وَعِنْدَمَا يَطْلُبُ أَحَدُ الْعُمَّالِ حَاجَةً مَا، أَوْ طَلَبًا، يَسْخَرُ وَيَهْزَأُ مِنْهُ أَمَامَ كُلِّ الْعُمَّالِ، وَيُعَايِرُهُ بِمَا طَلَبَ، وَكَانَ لِسَانُهُ سَلِيطًا يَشْتُمُ هَذَا، وَيَسُبُّ ذَاكَ، وَكَأَنَّهُ يَقُولُ لَهُمْ كَمَا قَالَ فِرْعَوْنُ لِقَوْمِهِ: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ (سورة النازعات، آية ٢٤).

وكَانَ رِدَاءُ الْكِبْـرِ هَذَا يَرْتَدِيهِ مَـعَ كُلِّ النَّاسِ، مَعَ الْعُمَّالِ، مَعَ الْجِيرَانِ، حَتَّى مَعَ أَهْلِهِ، فَكَرِهَهُ النَّاسُ وَكَرِهَـهُ رَبُّهُ، وَفِـى أَحَدِ الأَيَّامِ، وَبِسَـبَبِ مَاسٍ كَهْرَبَائِيٍّ احْتَرَقَ مَصْـنَعُ "فَـوَّازٍ" وَأَتَتِ النِّيرَانُ عَلَى كُلِّ مَا فِيهِ، كَبِيرًا أَوْ صَغِيرًا مِنْ أَجْهِزَةٍ وَمَاكِينَاتٍ وَبِضَاعَةٍ.

وَخسر "فَوَاز" كُلَّ شَيء في دُنيَاه، وَكذلك في آخرته، فَحسبُ الْمُتكبِّرين خِزْيًا وَمَهَانَةً في الدَّار الآخرة أنَّ الله تعالى لا يَنْظُرُ إليهم يَوْمَ الْقِيامَة، ولا يُزكِّيهم، جَزاءً وِفَاقًا لِمَا كَانُوا يَستكبِرُونَ في الأَرْض، وَيَستَعْلُونَ عَلَى النَّاس، يَقُولُ رَسُولُ الله ﷺ : «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر».

قَالَ التِّلْمِيذُ: أَعُوذُ بِاللهِ مِنَ الْكِبْرِ وَمِنَ الْمُتَكَبِّرِينَ.

وَقَالَتِ التِّلْمِيذَةُ: لَقَدْ فَازَ الْمُتَوَاضِعُونَ، وَخَسِرَ الْمُتَكَبِّرُونَ.

رَفَعَ الْأُسْتَاذُ يَدَيْهِ يَدْعُو رَبَّهُ قَائِلاً: رَبِّ اجْعَلْنَا مِنَ الْمُتَوَاضِعِينَ، وَلَا تَجْعَلْنَا مِنَ الْمُتَكَبِّرِينَ.

وَرَدَّدَ كُلٌّ مِنَ التِّلْمِيذِ وَالتِّلْمِيذَةِ: آمِينَ يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ.